

قصة قصيرة



# فتى الفلاة

ريثن ١٩٣٢



قصة قصيرة

# فتى الفلاة

تأليف: ريشن

جميع الحقوق غير محفوظة لأي أحد، ومتاحة لجميع الكائنات على هذا الكوكب (وما يليه).

يحق لك إعادة نشر هذا النص، طباعته، أو نسبته لنفسك وتحت أي اسم تراه مناسباً، ورجاءً لا تضيعوا وقتكم على شجار "من كتب ماذا".

إهداء إلى من يفهمون ما أعنيه خلف كل هذه الثثرة.

كأنك الآن لا ترغب في شيء  
لست مغتبطاً لكأنك لست حزيناً فالأمور تتشابه إلى حدّ بعيد  
وأنت ترى "تنظر كأنك ترى" المشهد العابر لكائنات تمرّ بك  
أمام عينيك، ولا تلتفت، لا تحرّك جفناً.

— بسّام حجّار

## الفصل الأول

كانت هنالك قرية، تقبع في أقاصي الأراضي المنسية، كأنما سقطت من حقيبة الخالق ومسحتها الخرائط، قريةً من طينٍ وغبار، لا يزورها الريف ولا تتذكرها المدينة، وفي تلك البقعة الباردة، كان يتحرك جسد صلب لطفلٍ يتوهم الجميع أنه موجود، بينما كان هو يدرك في قرارة نفسه أنه محض فراغ يسير على قدمين، لم يقل له أحدًا يومًا من أين جاء، كان يبصر الأطفال الآخرين يهرعون عند المساء نحو صدور أمهاتهم أو يحتمون بآباء يفوح منهم عرق الحقول، أما هو فكان يملك صمتًا أخرس، ولكي يطرد الخوف الذي ينهش صدره، صنع لنفسه تعزيةً قاسية: "أنا لم أُولد كباقي البشر.. وليكن المرء وحيدًا، أوجد ما هو أفضل من هذا؟"

كان الصباح يقتاده إلى مدرسة القرية التي تهالك سقفها الطيني، لم يكن يكره المكان فحسب، بل كان يستشعره سدمًا بلا معنى، حركات المعلم، صرير الطبشور، وتلاوة التلاميذ الصغار للدروس.. كلها كانت تبدو له كطقوس جوفاء يمارسها الموتى.. ومع ذلك، كان عقله يعمل بدقة ميكانيكية ملعونة؛ يستوعب العلوم قبل أن تتطرق بها الشفاه، ويحل المسائل ببرود يثير حنق أقرانه، كان يمد يده ليدرسَ هذا، ويوضحَ لذاك، لا رغبة في الثناء، كان يحب أن تكون الحياة كما يتصورها ولهذا يسعى أن يضع قطراتٍ من مائه في هذا البحر الممتد، وليملأ الفراغ الشاسع الذي يتهدهده كلما جلس ساكنًا. وما إن ينتهي اليوم، حتى يفر من الجدران، لم يكن يلعب كما يلعب الأطفال؛ بل كان يولي وجهه شطر الفلاة، يمشى ويمشي لمسافات لا يجرؤ بالغٌ على قطعها وحيدًا، يغوص في البراري الممتدة حيث تشتبك الريح بالأعشاب اليابسة وصوت الكلاب بصوت القرى البعيدة، لم يكن يتوه أبدًا، كأنما الخلاء يفهمه، وفي تلك العزلة المطلقة، كان رأسه الصغير يغلي بالأسئلة التي لا تناسب سن العاشرة، كان ينظر إلى الأفق ويحدث نفسه بلهجة رجلٍ أضناه العمر: "ماذا يخبئ الغد؟ أكون خيرًا؟" ثم ينفض الفكرة بسخرية مريرة، كان



يدرك، بحسٍ شبه فاجع، أن الفرح في هذه الحياة ليس إلا ضيفاً ثقيلاً يزور البيت لمأماً ثم يفر مسرعاً خجولاً، أما الحزن.. أوه، الحزن هو صاحب الدار الحقيقي، المالك الأبدي الذي يجلس عند العتبة ينتظر عودتك

وفجأة، تحركت يد القدر الثقيلة لتقلعه من هذا العالم المنسي، نُقل إلى أحشاء المدينة الكبيرة.

كان الممر إلى بيته الجديد ضيقاً، تفوح منه رائحة الفحم الحجري والطبخ العفن، عاش سنتين هناك كأنما أُلقي في زنزانة معتمة، الشوارع مزدحمة بأناس يجرون دون هدف، والأفكار الجديدة تهاجم رأسه الغض كأنها حرب بدأها الناس وهو المقاتل الوحيد الذي لا ذنب له بكل الخراب هذا، شعر أنه سجين في عالم لا يفهم لغته، لكن، تدريجياً، وبسرعة رجل يستوعب الكارثة، بدأ يفك شفرة هذا السجن الجديد.. فهم أن المدينة ليست إلا مقبرة أكبر، ولكنها معبدة بالأسفلت، ولم يكد يستقر في هذا الفهم حتى جاء قرار نقل جديد.. إلى مكان أشد بؤساً وقسوة، غير أن المأساة لم تعد تصدمه، لم يبك، ولم يحتج، بل وقف أمام أمتعته القليلة وابتسم ابتسامة باهتة لا تليق بطفل؛ فقد بزغت في عقله الحقيقة الكبرى: "أنا لا أنتمي لأي مكان على هذه الأرض.. ولن يكون هناك مكان ينتمي إليّ، ولهذا أنا مسافرٌ دائم على هذه الأرض". كانت هذه الفكرة هي درعه الوحيد ضد العالم.

استقر به المطاف في مقره الجديد الذي أصبح هذا المكان الخامس تقريباً، كان يكره عدم استقراره في مكانٍ واحد، كان يود في داخله أن تنمو جذوره في مكانٍ ما، أن تنمو روحه في بيئةٍ ما، لكنه تقبل أنه سيبقى يسافر بلا مكانٍ يرحب به، وفي مكانه الجديد هذا، حيث كانت الأيام تتشابه كقطرات ماء متساقطة من سقف متهالك، عاش هناك سنواته التالية بارداً، كأنه متفرج يشاهد مسرحية لا يعنيه ختامها، وعندما تسلم

وثيقة نجاحه من المدرسة، لم يلقِ عليها إلا نظرة خاطفة قبل أن يتركها على طاولة خشبية مغبرة ويخرج، لم يعد إليها أبدًا.

كان يشعر بيقينٍ بارد أن أحدًا لن يكثرث إذا ما اعتلى الدرجات الأولى أو سقط في القاع، كان العالم يتجاوزه بخطوات حثيثة، ومغادرته للمدرسة مرت كظل غيمة لم تمطر؛ لم يلتفت إليه معلم، ولم يفقده زميل، وفي هذا الإهمال المطلق، وجد نوعًا من الرحمة القاسية، لكن روحه، التي كانت تشبه الرجل يغلي تحت جليد ظاهري، لم تطق السكون.. بدأ يرمي بنفسه في عوالم مختلفة بلهفة احتراق خاطفة:

غاص في دواوين الشعر والأدب، يلتهم القوافي وكأنه يبحث عن تعويذة تجيب عن سؤال وجوده، ويبحث بنصوص الروايات والكتب لعله يعثر على جملة تعيد صياغة حكايته، ثم مسك بالريشة؛ سفك الألوان على القماش في معارك ليلية صامتة، محاولاً تجسيد الفراغ الذي يسكنه، ومن الرسم يهرع إلى ركض الملاعب وحلقات الملاكمة، يتلقى الضربات ويسددها ليحس أنه ما زال حيًا عبر الألم الجسدي، تعلم الإنجليزية وفنون الترجمة، كان يلتهم العلوم كمن يسابق وقتًا وهميًا، غير أن كل هذه المعارك كانت تنتهي بالنتيجة ذاتها: ما إن يكمل أحجية الفن أو المهارة ويتقنها، حتى يتسلل الشبح القديم: السأم، كان الملل ينهش أحشاءه كالسوس في الخشب، فيزهده في كل ما تعلمه خلال لحظة، كان يملك القدرة على أن يكون فنانًا عظيمًا، أو مترجمًا فذاً، أو رياضيًا لامعًا، لكنه كان يرفض أن يخطو الخطوة الأخيرة، وكان يفهم ويعرف في قرارة نفسه أن الحياة تتأرجح كمثل راقصة الساعة بين الألم والسأم<sup>1</sup>

1. اقتباس مستعار للفيلسوف الألماني آرثر شوبنهاور من كتابه "العالم إرادة وتمثلاً".

كان يرى كيف يتقاتل الناس لصقل مواهبهم بغية جمع المال أو نيل الشهرة أو الثناء والتمجيد، أو حتى حفر أثرٍ ما ليتركونه بعد رحيلهم، ليكون لهم ذكرى خالدة، فيبتسم هو بسخرية متعالية، ويحدث نفسه وهو يرمق الغروب من نافذته المعتمدة: "لماذا أكرس ذهني وجسدي لصناعة اسم سيتلاشى؟ المال والشهرة أباطيل يطاردها الموتى.. كل شيء في هذا العالم آيل للزوال، والوقت أقصر من أن نضيعه في جمع الخردة."

غير أن الحقيقة الأشد إيلامًا، والتي كان يهرب منها، هي أنه لم يكرس حياته لشحذ أي شيء، كان لا يريد اضاعة عمره على شيء كهذا، ولكنه في الوقت ذاته لم يضيع عمره على أي شيء آخر سوى اللاشيء، ربما لأنه لم يجد شاطئًا يستحق أن يلقي عنده مرساته، وربما هذا هو تبريره لنفسه، وما إن عبر عتبة العشرين، حتى أجبرته قسوة الواقع على تجربة العيش كالبشر العاديين، بدأ يطرق أبواب الوظائف.. قدم سيلاً من الطلبات، عشرون وساطة وعشرون طلباً في أيام معدودة، غير أن ردود العالم كانت تأتي كصفحات متتالية: الرفض، ثم الرفض، ثم لا شيء

(رغم أنه لم يؤمن يوماً بال حظ) كان حظه عثراً إلى درجة تحت على الضحك، كأنما كانت هناك قوة خفية تعيد دحرجة صخرته إلى القاع كلما حاول رفعها

وجد نفسه أخيراً في منتصف العشرينيات، مقطوعاً من شجرة الحياة، بلا أرض تحمله، بلا عائلة تدفنه، بلا أصدقاء يتقاسم معهم رغيف الكلمات، وبلا امرأة يهتز لذكرها قلبه، كان كائناً بلا أثر؛ لو أغمض عينيه الأخيرتين اليوم، لن يتغير إيقاع الشارع خطوة واحدة، قد تموت زهرة ما كان يسقيها، وقد تفتقده قطط الحي التي كان يقاسمها قوت يومه، غير أنه كمثّل ذرات الرمل التي تسكن الصحاري النائية، لن يفقده أحد ولن يلاحظ أحد وجوده أو عدمه..

وفي ليلة باردة، وقف أمام مرآته المكسورة، ينظر إلى عينيه الغائرتين،  
لم يكن يرتجف، ولم تذرف عيناه دمعة واحدة، بل تقدم نحو النافذة  
الفسيحة المطلّة على العتمة، وقال بصوت خفيض يشبه حفيف الأوراق  
الميتة:

"يتصارعون على الذكرى.. يخشون أن يُنسوا! وماذا تفعل الذكرى لجنّة  
تحت التراب؟ إن تذكرني أهل الأرض جميعًا أو نسوني كأنني لم أكن،  
هل سيمنحني ذلك لحظة واحدة من الوجود؟ الموت هو الحقيقة الوحيدة  
المطلقة، وأنا.. أنا أتقنت غيابي حتى قبل أن أصل إليه

ثم أطفأ السراج، وجلس في الظلام، ينصت إلى صمت العالم العميق،  
هادئًا كقبر قديم.

## الفصل الثاني

(1)

مرت أيام معدودة من اليأس، حتى عاد ليبحث عن عمل بعد أن أوغلت أبواب الشركات والمؤسسات في إغلاق أقفالها بوجهه، لم يعد يملك رفاهية البقاء متأملاً الفراغ دون أن يقرع جوفه الجوع، فرضت عليه الحياة تسوية قاسية؛ قبل عملاً بئساً في قبوٍ تحت الأرض لا تصله أضواء الشارع، كان القنديل النفطي يرسل ظلالاً متراقصة على رفوف خشبية متآكلة، كان يعمل في أرشيف مكتبة قديمة، يفرز السجلات المهترئة التي طواها النسيان وتغذت عليها العثة، بالنسبة لرجل ينتمي لللاشيء، كان هذا المكان تشخيصاً جغرافياً لروحه؛ هدوء المقابر، غياب البشر، ورائحة الورق العفن.. والتي كانت رائحته المفضلة، لم يكن هناك أحد يطالبه بالابتسام، ولا أحد يفتش في عينيه الصامتتين لكن الصمت، الذي اتخذه ملاذاً حريصاً، انكسر في ظهر أحد أيام الخريف الباردة

دخلت القبو فتاةً في مستهل العشرينيات، تلف جسدها بمعطفٍ صوفي خفيف، وتجر خلفها خطى مترددة.. كانت "ر"، طالبة الأدب التي جاءت تبحث عن مخطوطة نادرة، رفع عينيه نحوها ببرود، ثم عاد لملفاته دون أن ينطق بكلمة.. غير أن "ر" لم تكن كباقي الزوار؛ كانت تملك عيناً لا تخطئ مكان العتمة، أثارت فضولها تلك المشية الرزينة، والصمت المريب الذي يلفه كأنه كفن.

عادت في اليوم التالي، ثم الذي يليه.. كانت تختلق الذرائع لتبدأ معه حديثاً، وفي كل مرة، كان يجيبها بكلمات معدودة ولكنها حادة كالشرط، نافذة إلى عمق الأشياء دون تجميل.. رأت فيه ما لم تره في أقرانها من شبّان المدينة؛ رأت كبرياء الملك ورداء الصعلوك، رجلاً يملك معرفة

كالمحيط ولكنه يترفع عن صلف المال والشهرة، ظنت في جهلها الغرير أنها عثرت على "روح سامية" تُحلق فوق سطحيّات العصر، وفكرة نادرة تستحق أن تُنقذ من قبر العزلة، بدأت تقترب منه خطوة بخطوة.. كانت تجلب له القهوة الساخنة في الصباحات الماطرة، وتجلس عند طرف طاولته المتهالكة، تبسط أمامه أسئلتها عن الوجود والأدب والحياة، محاولة أن تبادله القصائد والكتب وآراءها الأدبية والفلسفية.

في بداية هذه العاصفة، كان يحاول تنبيهها إلى موضوع حاسم، موضوع يمثل بالنسبة له أولية متجذرة في عمق وعيه النابع من أسلوب حياته البائس. كان يحاول في كل مرة تقترب فيها هي خطوة—أن يبتعد هو خطوة، ويلمح لها أنه ليس من نفس الجذور التي تظنها في نواياها النابعة من طبيعتها البسيطة، بالنسبة لها، كان ذلك الحذر شعورًا عاديًا لا يتطلب كل هذا التوجس؛ كانت تظن بجهلها الغرير—طبيعة الإنسان العادي الذي لم ينحدر من **غور إنبيق التقطير**<sup>1</sup> أنه مجرد رجلٍ بائس بحاجة للمساعدة والإنقاذ.. لم تهتم لتردده، بل كانت تغوص أكثر بلهفة جاهل، وبرغبة فضولية شديدة.

ولأول مرة في تاريخه المظلم، وشعوره الأبدي بأنه "كائن بلا مكان"، أحس الفتى بثرثرة دافئة تتسلل إلى صدق صمته، حاول مقاومتها ببرود قسري في البداية؛ كان يخشى أن يفتح الباب لداخل قلبه فتستنشق سمومه.. لكن العطش البشري الأبدي للدفع كان أعتى من أسواره، تفككت دفاعاته بالتدريج، وصار ينتظر وقع خطوتها على الدرج الحجري باضطرابٍ يجهله، لكنه، وقبل أن يفرط في استسلامه، ترك يومًا على الطاولة التي تجلس عليها هي عادةً، ورقة مطوية اقتطعها من دفتر مذكراته

1. اقتباس مستعار من الأديب الروسي فيودور دوستويفسكي في روايته "رسائل من تحت الأرض" أو "مذكرات قبو".

والتي لم يكن ينوي أن يطلعها عليها، وقد كتبها ليذكر نفسه بنفسه. لكنه قرر -بحكم أنه لا يريد أن يكون المتهم- تركها في مكانٍ تطاله عينها، علَّها تقرأ تحذيره الأخير وتستفيق من وهماها:

"دعينا نحب بالخفاء والصمت، بعيدين هكذا كنجمين يتناجيان دون لمس.. لا تقولي أحبك، ولا تأخذيني إلى جثوة الابتهاال أمام محراب الحب؛ أتريدين أن نعتصر العذاب كقيس وليلى، أو نشرب المنية كروميو وجوليت؟ سنعلن العشق، ثم ننتهي غريبين كما هي لعنة العشاق دائماً.. لقد كلت روعي من الفراق، ومزّقتي الترحال وحريق الاشتياق. مشيت طويلاً في طرقات العمر وحيداً، أطأطي رأسي كي لا تلتقي عيني بعيني أحد فتتلاقى نظراتنا وتشعل نيران العاطفة.. أريد أن أظل في معزلي الآمن هكذا وإلى الأبد. إنني أعترف لك: أنا جبان، لا قدرة لي على أهوال الهوى.. لو كنت أتقن لغة الحب، لتركت روعي تتسرب قصيدةً من بين جراحي لتتسكب فيك، ولكنني أعجز عن فهمها.. وهذا الخوف الأكبر الذي يسكنني: أن أورط قلبك النقي مع قلبي المهشّم، وشتان بينهما لو تعرفين! لو كان للحب دربٌ واحدٌ لسلكته إليك، لكنه متاهة تشبه حياتي، ولا أحتمل أن أضلّك معي في ظلماتها."

قرأت "ر" النص، لم تحدثه عنه، ولم يذكره هو، لكنها اعتبرته رسالة غرامية شاعرية من عاشقٍ كئيب يخشى الوجد، ولم تعر التحذير الضمني أي اهتمام، بل ازدادت شغفاً بفك شفرته، وأبت إلا أن تدفع الباب المغلق

وبما أنه فتح أبواب قلبه أخيراً أمام اندفاعها، فقد وقعت هي في الفخ الذي حذر لها منه!

بدأ قلبه، الذي كان ينبض فقط لمحض البقاء الجسدي، يعزف ألحاناً جديدة.. بدأ يرى في عينيها الواسعتين الملاذ والأرض التي حُرّم منها



طوال عمره، لأول مرة، شعر أن هناك مكانًا على هذه الأرض ينتمي إليه، وأن لا شيء ينتمي لأحد طالما لم يلتقِ بـ"ر" لقد بدأ يقع في الحب، بكل ما يحمله قلبه المنهك من زخم واندفاع كاسح، ظانًا أن السماء، بعد كل تلك السنوات من البؤس، قررت أخيرًا أن تمنحه العوض، لكن الشغف الأعمى الذي أضاء قبو الأرشيف لم يكن سوى الفتيل الذي يسبق الانفجار.. كلما تعمق الحب في صدره، ووجد في "ر" الأمان الذي حرم منه طيلة حياته، بدأت يداه تفتحان لها أعماق وأحلك أبواب روحه، لم يكن يعلم أن البشر العاديين يخشون الأعماق، ونسي للحظة أنه ينحدر من غور إنبيق التقطير

في الأيام الأولى، كانت "ر" تظن أن ظلامه محض سوداوية شعرية جذابة (تلك التي قرأتها في رسالته المتروكة)، أو حزن نبيل يمكن دواؤه بالحب والاهتمام.. لكنها عندما بدأت تجلس معه لساعاتٍ طويلة، وتسمع أفكاره الحية دون رتوش أو أقنعة، بدأت بذور الرعب تنمو في قلبها، وبدأت تفهم -بفزع- معنى الرسالة والتحذير الذي اعتبرته سابقًا مجرد تردد طبيعي لشخص محب.

أخذ يشاركها نظراته للحياة؛ صور لها الفراغ الشاسع الذي ينهش داخله منذ طفولته، وسأمه المسموم الذي يلتهم كل عاطفة أو موهبة يتقنها.. تحدث عن الموت ببرودٍ مرعب وكأنه يصف نزهة عادية في الفلاة، وعن العدمية التي تجعل كل سعي بشري مجرد عبث لا معنى له.

وأخيرًا، أدركت ما ارتكبته! لم تجد خلف غلاف الغموض الذي فتنها بطلاً تراجيديًا، بل وجدت هاوية بكتيرية تلتهم كل شعور بالجمال والأمل، اكتشفت أنه كائن بلا جذور، لا يملك غاية، ولا طموحًا، ولا يقينًا يستند عليه.. كان بالنسبة لها كتمثال رخامي جذاب من بعيد، لكنها كلما اقتربت منه لم تجد دفء الحياة، بل لمست حجرًا يرسل برودة الموت إلى عظامها، بدأ يتغير نبر حديثها؛ أصبحت ضحكاتها قصيرة

ومضطربة، ونظراتها تحيد عن عينيه، كلما افترسه الشغف ودنا منها ليكشف لها عن سر جديد من أسرارهِ النفسية المظلمة، كانت ترتد إلى الخلف خطوة، وتتأمل يده المرتعشة بحذرٍ مريب، أدركت في قرارة نفسها الحقيقة القاسية: هي لم تكن تحبه هو، بل كانت تحب "صورة البطل المظلم" التي صنعتها في خيالها، وكانت تحب "شهوة إنقاذه"، أما الحقيقة، فقد كانت أضخم من قدرتها على الاحتمال.

وفي ليلة ممطرة، كان القبو يئن تحت ضربات الرياح، كان يجلس تحت ضوء القنديل الشاحب، وعيناه تلمعان ببريق طفولي غريب، ينظر إليها بشغفٍ يتجاوز الحدود، ويحدثها بصوت خفيض عن أمنيته الوحيدة في أن تظل بجانبه إلى الأبد، وأن يختبئاً معاً من هذا العالم البائس.

نظرت إليه "ر"، وقد بدأ الإدراك يهزها كما الرياح تهز الأغصان الناعمة، لم ترَ في عينيه حبيباً.. بل رأت الكابوس الذي حذرهما منه في مذكراته ورفضت تصديقه؛ كابوساً يوشك أن يبتلعها! أدركت أخيراً أنه لا بد من الهروب لإنقاذ نفسها، جمعت أوراقها وارتبكت يداها وهي تغلق حقيبتها، ابتعدت بكرسيها إلى الخلف بصوت صريرٍ جاف على البلاط البارد، ونظرت إليه بنفورٍ لم يستطع قناع اللطف أن يخفيه؛ وقالت بصوت يرتجف، تقطعه قشعريرة الخوف:

"أنا أعتذر، أنت.. أنت لست إنساناً حتى! أنت تجويف خاوٍ ينضح برائحة العدم، أفكارك المسمومة تقتل كل شيء جميل، وأنت لا تبحث عن الحب.. أنت تبحث عن جثة أخرى تسحبها معك إلى القاع! أعتذر.. أعتذر لكنني لا أستطيع".

تسمر في مكانه. سقطت الكلمات على روحه المتفتحة حديثاً كضربات الفأس على جذرٍ غض.. لم ترتسم في عينيه خيبة الأمل، بل اخترقته تلك النظرية القاتلة في عينيها؛ لم تكن نظرية كره، بل نفرة وذعر وقرق..

بالنسبة لها وللشعر العاديين، ولكن بالنسبة له، كانت حقيقة لا بد من تقبلها.

نهضت مسرعة، ولم تنتظر جوابه.. امسكت معطفها وهرعت نحو السلالم.. احتز صرير الباب الخشبي صمت المكان، وهو يغلق خلفها بشدة ليدخل هواء الليل الرطب ويلفح وجهه الشاحب المتسمر، جلس وحده وسط صمت الأرشييف المخيف ورائحة الورق العفن، أغمض عينيه برهة، ثم أطلق ضحكة قصيرة، مبحوحة، خنقها في كفيه، تمنى لو استطاع أن يذكرها بكلمات الورقة: بأنه لا ذنب له، وأنها هي من أجبرته على فتح أبواب هذا الفخ لتدخله طواعية.. غير أنها الآن رحلت، وانتهى كل شيء قبل أن يبدأ، في تلك اللحظة بالذات، استوعب الدرس الأخير والأشد إيلامًا في وجوده: إن العالم يكره اللاشيء، وإن حاول هذا اللاشيء أن يكون مثلهم ولو بأي طريقة، فإنه لن يكون سوى جثة يفر منها الأحياء، ليظل إلى الأبد.. بلا مكان، وبلا أحد.

## (2)

ترك القبو المعتم وسجلات الأرشييف خلفه دون أن يتسلم أجره، ودون أن يودع أحدًا، ومن كان له حتى يودعه؟.. خلع عن كاهله غبار المدينة، وتلك الرغبة البائسة التي راودته يومًا في أن يكون جزءًا من شقاء البشر، كانت الخطوات تقتاده، كأنما بدافع قهري، بعيدًا عن صخب الأسفلت والبيوت المتلاصقة التي تشبه الزنازين، مشى أيامًا طويلة، يقتات على القليل، ويرقد تحت ظلال الأشجار الباردة، حتى بدأت أضواء المدينة تتقلص وتتلاشى خلف أفق الرؤية، وتنفذ في أنفه رائحة التراب الجاف والنباتات البرية المعطرة بالندى

وأخيراً، وقفت قدماه على أطراف الفلاة الشاسعة، كان المدى يمتد أمامه بلا حدود، صامت، مهيب، لا يطلب منه اسماً، ولا يسأله عن أهله، ولا ينفّر أو يفر من عتمته النفسية، رمق الفلاة الممتدة أمامه بابتسامة باهتة لكنها صفحة من السلام؛ السلام الشديد الذي لا يمنحه إلا الضياع الكامل، خلع حذاءه الممزق، ولمس التراب الحار بأقدامه العارية، شعر بكهرومغناطيسية الأرض تسري في جسده المنهك، وكأنها أمه الحقيقية التي انتظرت طويلاً كي تعود لتضمه إلى صدرها، جلس على تلي رملي مرتفع بينما كانت الشمس تنهاوى نحو الغروب، تسكب ألوانها الأرجوانية والذهبية على مدى الفضاء البكر، رفع كفيه ونظر إليهما؛ لم تكن تحملان شيئاً، ولن تحملا شيئاً بعد الآن، القى بجسده على الأرض، وتوسد الذراعين، ثم أغمض عينيه واستمع إلى حفيف الريح وهي تعزف على أغصان الشجيرات النائية، همس للليل الذي بدأ يفرش عباءته السوداء فوق الفلاة:

"ها أنا ذا قد عدت.. عدت صغيراً كما غادرتك، بلا اسم، وبلا مكان، وبلا أحد، لقد جربت عالمهم، وأبصرت زيف أحلامهم، وعرفت أن ذروة الحكمة هي أن يدرك المرء أنه لا شيء."

تنفس بحرية لم يستشعرها طوال ثلاثين عاماً، لم يعد يخشى الرفض، ولا يخاف الوحدة، ولا يطارده سأم الوظائف أو قسوة الخيبة، أصبح جزءاً من هذا الخلاء العظيم؛ كالحجر، كالريح، وكالنجم المنسي في حواشي السماء، وساد الصمت من جديد، صمتٌ مطبق ومقدس، التقت فيه الفلاة ولدها القديم، وورته في صدرها الشاسع، ليبقى إلى أبد الآبدين.. فتى الفلاة.